# الفصل الرابع

## العوامل المؤثرة في التقدير الجمالي

هناك مجموعة من العوامل التي تستحوذ عليها الطبيعة وتكون مصدرًا لإحساسنا بالجمال. ويشير "وليم هوجارت" بالفعل إلى عدة عوامل مؤثرة متكاملة ومتداخلة بحيث لا يمكن أن يشكل أي عامل منها وحدة أساسًا مقبولاً للتقدير الجمالي، وهذه العوامل هي: التناسب، والتنوع، والاطراد، والبساطة، والتعقيد، والضخامة.

١- التناسب.

وهو مراعاة النسبة بين أجزاء العمل الفني واجتلاء التناسب في الموجودات الطبيعية، فالتناسب ضروري-في الفنون وفى الكائنات الحية على السواء- لتحديد معنى الجمال، فهو أساس الحكم على جمال الأشياء باختلاف أنواعها، بل هو العامل الحاسم في هذا المجال، ويضرب "هوجارت" لذلك مثلاً مشتقًا من فن العمارة، فإذا أريد أن يكون البناء الضخم جميلاً، فيجب أن يراعى في تصميمه التناسب بين ضخامة شكله الكلى، وضخامة أجزائه، كالنوافذ والأبواب والأعمدة ودرج السلم ...إلخ[1].

٢- التنوع.

يعتبر التنوع من أهم العوامل المؤثرة في شعور المتذوق باللذة، والتنوع ضد المماثلة التي تشعرنا بالملل، فاختلاف ألوان الأزهار

وأوراق الشجر والفراشات، يدخل على أنفسنا البهجة والسرور بتأثير تنوع ألوانها، ولكن هذا النوع لا يعد نوعًا من الاختلاف العشوائي، إذا أنه يجب أن يخضع لتخطيط معين. ويرى "هوجارت" أن التنوع ينطوي على سمة التدرج تلك التي نلاحظها في شكل الهرم.

٣- **الاطراد.**

وهو عامل سلبى، ومن ثم لا يجب أن نلجأ إلى اطراد بالخطوط والأشكال والأجزاء؛ لأن ذلك يعنى أننا سوف لا نصف شيئًا بالجمال إلا إذا كان ثابتا ساكنًا، بينما تتعلق سمة الجمال-بدرجة أكبر بالشيء المتحرك، ولهذا فيتعين على الفنان أن يتجنب السيمترية وأن يلجأ إلى التباين للتخلص من الاطراد[٢].

٤- **البساطة.**

ترتبط صفة البساطة بصفة التنوع، إذ أن البساطة بدون تنوع لا تعتبر من عوامل الجمال، فتنوع شكل الهرم رغم بساطته هو الذى يجعلنا نحكم عليه بالجمال.

٥- **التعقيد.**

يستند عامل التعقيد من الناحية الجمالية إلى أساس سيكولوجي، إذ أن حياتنا تتسم بطابع الكفاح المستمر، ونحن لا نجنى ثمرة هذا

الكفاح إلا بعد مجهود شاق نشعر بعده باللذة الصادقة والنشوة الغامرة؛ لأننا تغلبنا على صعاب واجتزنا عقبات، وكلما تجمعت العوائق التي تعترضنا في عمل ما، كلما ازدادت لذة الانتصار حدة، وسرعان ما يصبح الجهد المبذول وكأنه رياضة محببة ولهو وترويح عن النفس.

وكذلك فإن العين تشعر بلذة مماثلة عندما تشاهد انسياب الأنهار وانحناءاتها المتعددة، وأيضًا الطرق المتعرجة وسفوح الجبال وقممها المنحنية المختلفة الاشكال، ذلك لأن تركيب الشكل من خطوط معقدة يوحى إلينا الشعور بالحركة.

وليس تعقيد الأشكال في نظر "هوجارت" سوى خاصية كامنة في الخطوط التي يتألف منها الشكل، وهذه الخاصية أو السمة تستهوى العين إلى ملاحقتها فتحدث في النفس لذه من جراء ذلك، ولهذا نحن نسم هذه الخطوط أو الأشكال بالجمال(٣).

ولكن "هوجارت" يحذر من المبالغة في التعقيد؛ لأنه إذا زاد عند حد القصد انقلب إلى شيء منفر للعين باعث إلى النفور وعدم الارتياح، ومن ثم فإنه يتعين استخدام هذا العامل في شيء من القصد والاعتدال(٤).

## ٦- الضخامة.

للضخامة تأثيرها الذى لا يجحد على فكرة الجمال، ذلك أننا عندما نرى جبالا شاهقة أو صخورًا ضخمة أو محيطات شاسعة أو اشجارًا ضخمة أو قصورا أو معابد ضخمة البناء، فإننا نشعر إزاءها بالروعة وبنوع من الرهبة وسرعان ما يتحول هذا الشعور إلى اعجاب مقرون باللذة. وهذا هو الشعور الذى يغمرنا حينما نشاهد المعابد المصرية القديمة بأعمدتها الفارعة وتماثيلها الضخمة الرهيبة الوقورة، فالضخامة تضيف سمة الوقار إلى الرشاقة. ولكن المبالغة في الضخامة قد تقضى على سمة الجمال في الشيء البالغ الضخامة، فلابد إذن من وجود تناسب بين أجزاء الأثر الضخم(٥).

هذه إذن العوامل التي يجب توافرها في الأثر الفني أو في الطبيعة لكى تحكم بمقتضاها بالجمال على الأشياء، ولكن "هوجارت" يضع عاملي التناسب والتنوع في مرتبة الصدارة بين هذه العوامل والمؤثرات التي تؤسس في مجموعها سمة الجمال في الأشياء، أما الاطراد والبساطة فهما عاملان مساعدان، بينما يضفى التعقد مسحة الرشاقة على الشيء الجميل، كما تضفى الضخامة عليه سمة الوقار(٦).

وقد حاول البعض من فلاسفة الجمال أن يثبت بعض الخصائص التي يتصف بها الشيء الجميل، ومنهم "ادموند بيرك"(١٧٢٩-١٧٩٧م) فهو يرى أن الشيء الجميل يتصف بخصائص أهمها: الضآلة، والرقة، والتنوع المتدرج بين أجزائه، وعدم اتصال هذه الأجزاء بعضها بالبعض الآخر على شكل زوايا، ونعومة المظهر، أو اختفاء كل مظهر للقوة.

ووضوح اللون وبريقه دون أن يكون خاطفًا، والألوان الهادئة أي الفواتح هي أقرب إلى سمة الجمال من غيرها من الألوان القاتمة. ومن ناحية الأصوات نجد أن الصوت الناعم الرقيق هو الذي يوصف بالجمال، دون غيره من الأصوات الهادرة الخشنة، ومن ناحية الملمس- والملمس عنده أهم حواس إدراك الجمال- نجد أن الأجسام الصقيلة أقرب إلى الجمال من الأجسام الخشنة الملمس(٧).

وإذا كان "بيرك" و"هوجارت" وغيرهم كثير قد اتجهوا إلى الحديث عن الخصائص الظاهرة للشيء الجميل، فإن فريقًا آخر اتجه إلى إعطاء الخصائص الباطنة أو المعنوية اعتبارها، ونثبت -على سبيل المثال- رأي "كروتشه" في هذا الصدد حيث يرى:

١. ألا يكون الفن ظاهرة فيزيائية، أو واقعة طبيعية، ومعنى هذا نقد سائر النزعات التجريبية في علم الجمال. فالظاهرة الفنية واقعة لا تقبل القياس بل هي حقيقة روحية.

٢. ألا يكون الفن فعلاً نفعيًا، بل يطلب الفن لذاته وليس كغاية، ولهذا فقد رفض "كروتشه" كل مذاهب اللذة أو المنفعة.

٣. ألا يكون الفن "فعلاً أخلاقيًا" فإذا كانت الإرادة الخيرة هي قوام الإنسان الفاضل، فإنها ليست قوام الإنسان الفنان، ومعنى هذا وضع الفن خارج نطاق الأخلاق، وهو بالتالي رفض لفكرة "الفن الموجه".

٤. يرفض أن يكون الفن مجرد معرفة تصورية، وبهذا يكون الفن في مقابل العلم، ويتقرر بناء عليه نفور الفن من العلوم الوضعية والرياضيات أشد من نفوره من الفلسفة والدين والتاريخ[٨].

ونتساءل –بعد تقديم وجهتي النظر السابقتين– هل كان ما ذهب إليه كل من "بيرك" و"هوجارت" نتيجة لاستقراء قام به كل منهما، أم هو وجهة نظر خاصة؟ ومهما يكن من أمر فإن ما طرحاه لا يكون رأيًا عامًا بسبب اختلاف الأذواق لدى الناس، ثم هي مفاهيم عامة

تنقصها الدقة، وما صح منها في مجال قد لا يكون كذلك في مجال آخر.

## ثانيًا: مقاييس الجمال.

هل هناك مقاييس يمكن اعتمادها في تقدير الجمال؟. إن الإجابة على هذا السؤال متوقفة على النظرة إلى الجمال، فيما إذا كان من الممكن أن نطبق عليه معايير العلم، أم لا؟.

الذين ذهبوا إلى النفي، عللوا ذلك بتعليلات مختلفة، أما "هيجل": فالجمال-في نظره-أمر عرضي، وبالتالي: فإنه يستحيل صوغ معيار للجمال، ذلك أن الأذواق تختلف إلى ما لا نهاية[٩].

وذهب بعضهم إلى إمكانية القياس بالرجوع إلى واحد من الثلاثة التالية حيث يكون الحكم:

١. إما بالاستناد إلى آراء علماء الجمال والفلاسفة.

٢. وإما بمقارنة الأعمال الفنية بعضها ببعض.

٣. وإما بالاعتماد على الطبيعة؛ لأنها تبدو في بعض الأحيان المعيار الذي نقيس به العمل الفني الجميل[١٠].

وعلى الرغم من كل هذه المحاولات التي تسعى نحو تقديم مجموعة من العوامل التي تؤثر في حكمنا أو تقديرنا للشيء الجميل، فإنه سيظل الحكم الجمالي حكمًا فرديًا، ذلك أن هناك عوامل كثيرة تدخل في عملية الحكم، ترجع إلى شخصية المتأمل، سواء أكان هذا المتأمل فنانًا أم عالمًا أم ناقدًا، أم مشاهدًا عاديًا.

فالذوق، والثقافة الفنية، والقيم التي يهتم بها، وأهمية الموضوع بالنسبة إليه، وحالته النفسية في تلك المرحلة.. إنها عوامل كثيرة، ومن غير المعقول أن يحصل الاتفاق عليها بين اثنين.. إذ الاختلاف في واحد منها، يعني تغيّر نتيجة المعادلة وتبقى المقاييس الشخصية هي المرجع(١١).

## ثالثًا: التذوق والتقدير.

يبقى أن نشير إلى ما يميز التقدير الجمالي عن التذوق. فإذ يكاد التذوق أن يكون متشابهًا لدى أبناء الثقافة الواحدة باختلاف في الدرجة فإن التقدير يختلف عن ذلك، إذ يكاد لكل شخص حكمه وتقديره تبعًا لثقافة الشخص وكيفية تفاعله مع البيئة. وهو- أي التقدير- يتناول القيمة الإدراكية للشيء على أساس من إدراك العلاقات بين عناصر الموضوع ومعرفة تركيبه.

إلا أن هذا لا يمنع من الإشارة إلى أن تقدير الجميل والحكم عليه يتأثران بالعوامل الذاتية للشخص (حالته النفسية، قدرته على النظر إلى الموضوع بمنظار منتجه، قدرته على المقارنة). وهنا تختلف نظرة الشاعر مثلاً للقصيدة التي يتلقاها مع نظرة القاص أو الفنان التشكيلي.. وتتعلق النظرة بالمادة وعناصرها وشكلها. وبلغة المتلقي قدرته على التحليل والتركيب والنقد وبخبراته السابقة.

فالرؤيا الجمالية في علاقاتنا بالمحيط والمؤثرات المختلفة فيه تكتشف علاقات منها ما هو مطمئن، ومنها ما هو منفر. لكن الإنسان المتذوق يحاول أن يغير من موقع الأشياء أو يتلاعب بالعناصر يبرز بعضها يخفي البعض الآخر حتى يتحول ما هو داخل مدى إحساسه إلى مظهر جمالي ماتع، لكن هذه الرؤيا لا تأتي سهوًا رهوًا بل نتيجة تربية وتعود(١٢).

## الهوامش

١- محمد علي أبو ريان: فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلـــة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م، ص ص ٣٢-٣٣.

٢- المرجع السابق، ص ٣٣.

٣- المرجع السابق، ص ٣٤.

٤- المرجع السابق، ص ٣٥.

٥- المرجع السابق.

٦- المرجع السابق، ص ٣٦.

٧- المرجع السابق، ص ٣٩.

٨- انظر في ذلك: زكريا إبراهيم: فلسفة الفن في الفكـــر المعاصـــر، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ص ٤٣-٤٨.

٩- صالح أحمد الشامى: خصائص الجمال ومقاييسه، شبكة الألوكـــة (ثقافة ومعرفة وفكر)، ١٥-٤-٢٠١٣م. على الرابط التالي:

http://www.alukah.com. In:7-12-2015.

١٠- المرجع السابق.

١١- المرجع السابق.

12- http://www.startimes.com. In: 7-12-2015.